

تفسير سورة ص

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا
وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله تعالى : « وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » أي : والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ، ونفع لهم في المعاش والمعاد . قال الضحاك في قوله : « ذِي الذِّكْرِ » كقولهم : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » [الآيات : ١٠] أي : تذكيركم . وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، وإسماعيل بن أبي خالد : « ذِي الذِّكْرِ » : ذى الشرف ، أي : ذى الشأن والمكانة . ولا منافاة بين القولين ، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار . واختلفوا في جواب هذا القسم ، فقال بعضهم : هو قوله : « إِنْ كُنَّا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ [ص : ١٤] . وقال قتادة : جوابه : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » ، واختاره ابن جرير .

وقوله : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أي : إن في هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر . وإنما لم يتطعن به الكافرون لأنهم « فِي عِزَّةٍ » أي : استكبار عنه وحمية ، « وَشِقَاقٍ » أي : ومخالفة له ومعاندة ومفارقة .

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال : « كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » أي : من أمة مكذبة ، « فَنَادَوا » أي : حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله . وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً . كما قال تعالى : « فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ » [الآيات : ١٢] أي : يهربون ، « لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِقْتُمْ فِيهِ وَمَسَاجِدِكُمْ لَكُمْ تَسَالُوتٌ » [الآيات : ١٣] .

وقال ابن عباس : ليس بحين مفاث . وقال محمد بن كعب في قوله : « فَنَادَوا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ » ، يقول : نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم . وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء . وقال مجاهد : ليس بحين فرار ولا إجابة . وقد روى نحو هذا عن عكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، وأبي مالك ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، والحسن ، وقاتدة .

وهذه الكلمة وهي « لا ت » ، هي « لا » التي للنفي ، زيدت معها « التاء » ، كما تزد في « ثم » ، فيقولون : « ثم ت » ، و« رب » فيقولون : « رب ت » . وهي مفصولة ، والوقف عليها . ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين : « ولا تحين مناص » . والمشهور الأول . ثم قرأ الجمهور بنصب « حين » ، تقديره : وليس الحين حين مناص . ومنهم من جوز النصب بها ، ومنهم من جوز الجر بها . وأهل اللغة يقولون : النوص : التأخر ، والبوص : التقدم . ولهذا قال تعالى : « وَلا ت »

حين تناصر ﴿ اى : ليس الحين حين فرار ولا ذهاب .

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذٰبٌ ﴿١٠﴾ أَجْمَلَ الْآلِهَةِ إِلٰهًا وَجِدًا إِنَّا هٰذَا نَسِئُهُ عَجَابٌ ﴿١١﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبِرُوا عَلٰى مَا الْهَيْكَلُ إِنَّا هٰذَا نَسِئُهُ بُرَادٌ ﴿١٢﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْآلِهَةِ الْآخِرَةِ إِن هٰذَا إِلَّا أُخْلِقُوا ﴿١٣﴾ أَمْ نَرٰى عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي سَكٰتٍ مِّنْ ذِكْرِيْ بَلْ لَمَّا يَدُفَعُوا عَذَابِ ﴿١٤﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿١٥﴾ أَمْ لَهُمْ مِّثْلُكَ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٦﴾ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِّنَ الْأَحْرَابِ ﴿١٧﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تمجيدهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً، كما قال عز وجل: ﴿ أَكٰنَ لِلنَّاسِ عِجَابًا أَنْ أَوْحِيَٰ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صٰدِقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِن هٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿ يونس : ٢٠ ﴾ . وقال هاهنا: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ اى : بشر مثلهم، ﴿ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذٰبٌ . أَجْمَلَ الْآلِهَةِ إِلٰهًا وَجِدًا ﴾ اى : ازعم ان المعبود واحد لا اله الا هو؟! انكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتمجبوا من ترك الشرك بالله، فانهم كانوا قد تلقوا عن آباءهم عبادة الأوثان وأشربت قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، اعظموا ذلك وتمجبوا وقالوا: ﴿ أَجْمَلَ الْآلِهَةِ إِلٰهًا وَجِدًا ﴾ اى : هذا شيء عجب . وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴿ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكباراهم قائلين: ﴿ آمَنُوا ﴾ اى : استمروا على دينكم ﴿ وَأَصْبِرُوا عَلٰى آلِهَتِكُمْ ﴾ ، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد .

وقوله: ﴿ إِن هٰذَا لَشَيْءٌ مُّبْرَادٌ ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نخيبه إليه .

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

روى جرير عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فتهته ؟ فبعث إليه، فجاهه النبي ﷺ فدخل البيت ، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخشى أبو جهل أن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه . فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه ، فجلس عند الباب . فقال له أبو طالب : اى ابن أخى ، ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : يا عم ، إني أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففزعوا لكلمته ولقوله ، فقال القوم : كلمة واحدة ! نعم وأبيك عسرا ، فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يا بن أخى ؟ فقال : لا إله إلا الله ، فقاموا فزعين ينفسون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿ أَجْمَلَ الْآلِهَةِ إِلٰهًا وَجِدًا ﴾ اى : هذا شيء عجب ، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى

قوله: ﴿لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ﴾ . وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي نحوه ، ورواه الترمذى ، نحوه . وقال الترمذى : حسن^(١) . وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلْمِ الْآخِرَةِ﴾ أى : ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة . قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : يعنون دين قريش . وقال غيرهم : يعنون النصرانية ، قاله محمد بن كعب ، والسدى . وقال ابن عباس : يعنى : النصرانية ، قالوا : لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى . ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة : كذب ، وقال ابن عباس : تخرص .

وقولهم: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى : أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿تَوَلَّى نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بِهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم ، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم ، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ﴾ أى : إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته ، سيعلمون غيب ما قالوا ، وما كذبوا به ، يوم يدعون إلى نار جهنم دَعَا .

ثم قال ميبنا أنه المتصرف فى ملكه ، الفعال لما يشاء ، الذى يعطى من يشاء ما يشاء ، ويعز من يشاء ، وينزل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختتم على قلب من يشاء ، فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر ، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مشقال ذرة ، وما يملكون من قطميرا ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى : العزيز الذى لا يرام جنباه ، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد . وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ إِذَا لَوْ اتُّوْنَ النَّاسُ نَفِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ لَقَدْ آتَى آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣-٥٥] ، وقوله : ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا﴾ [الإسراء: ١٠] ، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى ، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿الَّذِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَجْرٌ . سَيَلْمُونَ غَدًا مِنْ الْكُذَّابِ الْأَجْرُ﴾ [القمر: ٢٥ ، ٢٦] .

وقوله : ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَفِرْقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أى : إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : يعنى طرق السماء . وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة . ثم قال: ﴿جَدُّ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أى : هؤلاء الجند المكذوبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكفون ، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين ، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وكان ذلك يوم بدر ، ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْفَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٤-٤٦] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَرْوَاحِ ﴿١٥﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ

(١) ابن جرير فى التفسير (٧٩/٢٣) والنسائي فى الكبرى (١١٤٣٦ ، ١١٤٣٧) والترمذى (٣٢٣٢) .

الْأَحْزَابِ ﴿١٢﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والتقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الانبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسوطه في أماكن متعددة .

وقوله : ﴿ أَوْلِكَ الْأَحْزَابِ ﴾ أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة ، وأكثر أموالا وأولاداً ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر . وقوله : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أى ليس لها مثوية ، أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أى : فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرائيل أن يطولها ، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استنى الله عز وجل .

قوله : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، فإن القبط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : سألو تعجيل العذاب - زاد قتادة : كما قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال : ٣٢] . وقيل : سألو تعجيل نصيبهم من الجنة ، إن كانت موجودة أن يلقوا ذلك فى الدنيا . وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب . وقال ابن جرير : سألو تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا . وهذا الذى قاله جيد ، والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ أَمْ أَرَأَى لَ الصَّبْرِ عَلَىٰ إِذَاهِم ، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر :

﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ ﴿١٨﴾ وَالطُّرُقِ ﴿١٩﴾ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْكُتَابِ ﴿٢١﴾ ﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ، عليه السلام : أنه كان ذا أيد ، والأيد : القوة فى العلم والعمل . قال ابن عباس وابن زيد والسدى : الأيد : القوة ، وقرأ ابن زيد : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَنُوسِبُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] . وقال مجاهد : الأيد : القوة فى الطاعة . وقال قتادة : أعطى داود ، عليه السلام ، قوة فى العبادة ، وفقها فى الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه ، عليه السلام ، كان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف الدهر . وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفطر إذا لاقى » (١) . وإنه كان أواباً ، وهو الرجوع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه .

وقوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيحه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه وتحميه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له. ولهذا قال: ﴿ وَالطَّيْرُ مَخْشَوَةٌ ﴾ أي: محبوسة في الهواء ﴿ كُلُّ لَهُ أَوْبٍ ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له . قال سعيد بن جبير، وقتادة، وريد بن أسلم، وابن زيد: ﴿ كُلُّ لَهُ أَوْبٍ ﴾ أي: مطيع.

وقوله: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً. ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفتنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدى: ﴿ الْفِكْمَةُ ﴾: النبوة. ﴿ وَقُضِيَ الْخُطَابُ ﴾ قال شريح القاضي، والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والإيمان. وقال قتادة: شاهدان على المدعى، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل - أو قال: المؤمنون والصالحون - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبدالرحمن السلمي. وقال مجاهد، والسدى: هو إصابة القضاء وفهم ذلك. وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير. وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: « أما بعد ».

﴿ وَهَلْ أُنْتَكَبُوا النَّوَى الْخَصْمَ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاتَّخَفْنَا بِبَيْنَتِنَا بِالْحَقِّ وَلَا نَشْطِطُ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿ إِنَّ هَذَا أَحِبُّ لَمْ يَسْعَ وَيَسْعُونَ نَجْمَةً وَلَى نَجْمَةٍ وَجِدَّةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَفْسِكَ إِنَّ نَفْسَكَ إِنْ يَمَاجِجٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَمْ عِنْدَنَا لِرُؤْفَةٍ وَحُسْنِ مَّخَابِرٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾: إنما كان ذلك لانه كان فى محرابه، وهو أشرف مكان فى داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي: عَلَّنِي. يقال: عز يمز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَاهُ ﴾ قال ابن عباس: أى اختبرناه. وقوله: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي: ساجدا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات القرين.

وقد اختلف الأئمة فى سجدة «ص»، هل هى من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى أنها ليست من عزائم السجود، بل هى سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ

يسجد فيها. ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى البخارى عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدة؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الانعام : ٨٤] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمَ آفَقَهُ ﴾ [الانعام : ٩٠] ، فكان داود، عليه السلام، عن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ (٢). وروى أبو داود: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قراها، فلما بلغ السجدة تَشَرَّنَ الناس للسجود، فقال: « إنما هي توبة نبي، ولكنى رأيتكم تَشَرَّنْتُمْ ». فنزل وسجد، وسجدوا. فترد به أبو داود (٣)، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية فى الجنة، لتوبته وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهلهم وما ولوا» (٤).

﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الاكيد والعذاب الشديد. روى ابن ابى حاتم عن ابراهيم أبى زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أياحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الاول، وقرأت القرآن وفقحت؟ فقلت: يا امير المؤمنين، أقول؟ قال: قل فى امان. قلت: يا امير المؤمنين، انت اكرم على الله أو داود؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة، ثم توعد فى كتابه فقال: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ : هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدى: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله سبحانه الموفق للصواب.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أَمْ جَعَلُوا الَّذِينَ ءَآسَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُوا السَّعِيرِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿ كَتَبَ آزَلْتُهُ إِلَيْكَ مِيزَانًا لِيَذَّبُوا ءِآيَاتِهِ. وَلَسْتَ تَكْفُرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عشا، وإنما خلقهم ليعدوه ويوحده، ثم يجمعهم يوم الجمع، فيشيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ

(١) المسند (٣٣٨٧) والبخارى (١٠٦٩) وأبو داود (١٤٠٩) والترمذى (٥٧٧).

(٢) البخارى (٤٨٠٧). (٣) أبو داود (١٤١٠). والتشترن: التاهب والتهبؤ.

(٤) سلم (١٨٢٧ / ١٨).

كَفَرُوا ﴿ أَى : الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾ أَى : ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين ، فقال : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أَى : لا نفعل ذلك، ولا يستون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هنا من هنا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أَى : ذور العقول ، وهى الالباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصرى: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ، ما يرى له القرآن فى خلق ولا عمل.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِيسَى الصَّفِيفَتِ الْجِيَادِ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِيقٌ مَسْحًا بِالْسُوقِ ﴿٣٣﴾ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ، أَى : نبيا، كما قال عز وجل : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [النمل : ١٦] أَى : فى النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى : ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِيسَى الصَّفِيفَتِ الْجِيَادِ ﴾ أَى : إذ عرض على سليمان فى حال ملكته وسلطانه الخيل الصافيات. قال مجاهد : وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجيااد: المراع. وكذا قال غير واحد من السلف . عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعب - فقال : «ما هذا يا عائشة ؟» قالت : بناتى. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رفاع، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذى أرى وسطهن ؟ » . قالت : فرس. قال : «وما هذا الذى عليه ؟ » . قالت : جناحان. قال : «فرس له جناحان!» قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها اجنحة؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ (١) .

وقوله : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بمرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس،

فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب^(١). ويحتمل أنه كان سائفاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تزداد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول والأوزاعي، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعده: «رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْتَاقِ» قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغلني عن عبادة ربي آخر ما عليك. ثم أمر بها فعمرت. وكذا قال قتادة. وقال السدي: ضرب أعتاقها وعراقبيها بالسيوف. وقال ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقبيها حباً لها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعدب حيواناً بالعربة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها.

وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها، وهي الريح التي تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل. وروى الإمام أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكران السفر نحو البيت - قالوا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئا اتقاء الله - تعالى - إلا أعطاك الله خيرا منه»^(٢).

﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَدِيلٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿ فَصَحَّرْنَا لَهُ الْوَيْجَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِضَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿ وَأَخْرَجْنَا مَقْرِبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ وَإِن لَّمْ عِنْدَنَا لَرْحَمٌ وَمَحْنٌ مَّوَابٍ ﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أي: اختبرناه بأن سليناه الملك مرة ﴿ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم: يعني شيطانا ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبته. ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَدِيلٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ قال بعضهم: معناه: لا يبغي لأحد من بعدى، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدى، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

(١) البخاري (٤١١٢) ومسلم (٦٣١ / ٢٠٩).

(٢) المسند (٧٨ / ٥)، وقال الهيثمي في الزوائد (٢٩٩ / ١٠): «رجال رجال الصحيح».

روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن عفرتنا من الجن تغلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة ، فأمكننى الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان ، عليه السلام : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ . قال روح : فرده خاسئا . وكذا رواه مسلم والنسائى ، من حديث شعبة ، به (١) . وروى مسلم عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعتاه يقول : « أعوذ بالله منك » . ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » - ثلاثا - وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يتأخر - ثلاث مرات - ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرا ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتمنى وإبليس ، فأهويت يدي ، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعى هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وقد روى أبو داود منه : « من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » (٣) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله الديلمى قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط له بالطائف يقال له : « الوهط » ، وهو مخاصر فتى من قریش يزُنُّ بشرب الخمر ، فقلت : بلغنى عنك حديث أنه « من شرب شربة خمر لم يقبل الله ، عز وجل ، له توبة أربعين صباحا ، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ، ثم انطلق . فقال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحل لأحد أن يقول على مالم أقل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة ، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه . فإن عاد - قال : فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة - فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رذغة الخبال يوم القيامة » . قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل » . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سألها حكما يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسألها ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسألها أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد

(١) البخارى (٤٨٠٨) ومسلم (٣٩/٥٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٤٠) .

(٢) مسلم (٤٠/٥٤٢) .

(٣) المسند (٨٣/٣) أبو داود (٦٩٩) ، وصححه الألبانى .

أعطينا إياها « (١) . وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ، عز وجل ، خلا لا ثلاثا . وذكره (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاء إلا استفتحته « سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب » (٣) .

وقوله : ﴿ فَسَفَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ قال الحسن البصرى : لما عقر سليمان الخيل غضبا لله ، عز وجل ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله : ﴿ حَيْثُ أَصَاب ﴾ أى : حيث أراد من البلاد . وقوله : ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ أى : منهم من هو مستعمل فى الابنية الهائلة من محاريب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الاعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللآلى والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها ﴿ وَأَخْرَيْنَ مُقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أى : موثوقون فى الاغلال والاكبال ، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى .

وقوله : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أى : مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذى يفعل ما يؤمر به - وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله به - وبين أن يكون ملكاً نبياً ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل ، فقال له : تواضع . فاختر المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة فى المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضاً فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً ، فقال : ﴿ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ أى : فى الدار الآخرة .

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿١٠١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿١٠٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٠٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب ، عليه السلام ، وما كان ابتلاء تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مفرز إلا رية سليما سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شئ يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم

(١) المسند (٦٦٤٤) وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» . والحديث فى المخطوطة والمطبوعة عن «ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمى» . وهو خطأ ، فإنها اسمان ، وربيعة إنما يروى عن عبد الله . والمخاصرة : أن يأخذ الرجل بيده صاحبه يتماشيان ويد كل واحد منهما عند خصر صاحبه . وَيَزَنُ : يتهم .

(٢) النسائي (٦٩٣) وابن ماجه (١٤٠٨) ، وصححه الألبانى وحرف ابن عمرو فى المطبوعة إلى «ابن عمر» .

(٣) المسند (٥٤/٤) قال الهيثمى فى الزوائد (١٠٩/١٠) : «فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد ، وبقية رجاله رجال

الناس بالاجرة وتطعمه ، وتخدمه نحواً من ثمانى عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل واولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن القى على مزيلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته ، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريباً . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدر ، وتم الاجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، فقال : ﴿ أَنِّي مَسِيئُ الظُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الايآء : ٨٣] ، وفى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيئُ الشَّيْطَانِ نَصِيبٌ وَعَذَابٌ ﴾ قيل : ينصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى . فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله . ففعل فأنبع الله عيناً وأمره أن يغسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى . ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر ، فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ .

روى ابن جرير ، وابن أبى حاتم جميعاً عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب ، عليه السلام ، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدرى ما تقول ، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، عز وجل ، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكرنا الله إلا فى حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب ، عليه السلام ، ان ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ، فاستبطأته ، فالتفتت تنظر ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان . فلما رآته قالت : أى بارك الله فىك ، هل رأيت نبي الله المبتلى ؟ فوالله على ذلك ، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإنى أنا هو . قال : وكان له أندران ، أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً ، خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثو فى ثوبه ، فتداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » . انفرد بإخراجه البخارى ، من حديث عبد الرزاق ، به (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مِنْهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، قال الحسن ، وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم ورادهم مثلهم معهم . وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى : به على صبره وثباته

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ٧ - ١) ورواه البزار فى مسند (٢٣٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٠٨ / ٨) : « رجال البزار رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٨١٤٤) والبخارى (٢٧٨) .

وإنابه وتواضعه واستكانته ، ﴿ وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : لذوي العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله : ﴿ وَخَذَّ بِذِكْرِ خِيفَةٍ فَضُرِبَ بِهِ وَلَا تُحَنَّتْ ﴾ ، وذلك ان أيوب ، عليه السلام ، كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها في أمر فمكته . قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه ، فلأمها على ذلك ، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة . وقيل : لغير ذلك من الأسباب . فلما شفاه الله وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فافتاه الله ، عز وجل ، أن يأخذ ضغثاً - وهو : الشمرخ - فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه ، وخرج من حثته ووفى بئنله ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأتاب إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، اتنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجاع منيب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

﴿ وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارَ ﴿١٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ عِبْدَنَا لِمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿١٥٦﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٥٧﴾ هَذَا ذِكْرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : ﴿ وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ أى بذلك : العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ يقول : أولى القوة ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ يقول : الفقه فى الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ أى : القوة فى طاعة الله ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ أى : البصر فى الحق . وقال قتادة والسدى : أعطوا قوة فى العبادة وبصراً فى الدين .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارَ ﴾ قال مجاهد : أى جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها . وكذا قال السدى : ذكرهم للأخرة وعملهم لها . وقال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها . وقال سعيد بن جبيرة : أى بالدار الجنة ، يقول : أخلصناهم لهم بذكرهم لها ، وقال فى رواية أخرى : ﴿ ذَكَرْنَا الدَّارَ ﴾ : عقبى الدار . وقال قتادة : كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها . وقال ابن زيد : جعل لهم خاصة أفضل شئ فى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِبْدَنَا لِمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴾ أى : لمن المختارين المحجبتين الأخيار ، فهم أخيار مختارون . وقوله : ﴿ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ : قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا . وقوله : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أى : هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر . وقال السدى : أى : يعنى القرآن .

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿١٥٨﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ مَّغْنَمٍ لَهُمُ الْآزْوَابُ ﴿١٥٩﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِقُلُوبِهِمْ كَثِيرَةً وَمِزَابٍ ﴿١٦٠﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَعْرَابُ ﴿١٦١﴾ هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَكُنْ لَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾

يغير تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم في الدار الآخرة ﴿لَحْنَنَ مَابٍ﴾ وهو: المرجع والمقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والالف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿مُتَكِينِينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين فيها على مرر تحت الحجال ﴿يَدْخُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاوروا أنهم به الخدام ﴿بِأَنْوَاعٍ وَأَبْيَاقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨]. ﴿وَعِدْنَهُمْ قَابِضَاتٌ الطَّرْفِ﴾ أى: عن غير أزواجهم، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَنْزَابٍ﴾ أى: متساويات في السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدنا لعباده المتقين، التى يسيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا روال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَالَهُ مِنْ ثَمَارِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٌ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَمْتُونٌ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُثْيَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُثْيَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ ﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئسَ المهاد﴾ ﴿هَذَا قَلْبُ قَوْفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾
 وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿هَذَا قَوْجٌ مُقَدِّجٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِيَوْمٍ إِتْمَمُوا النَّارَ﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا
 بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبئسَ التَّسَارُؤُ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِزْدُهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وَقَالُوا
 مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ بَيْنَ الْأَشْرَارِ ﴿أَخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ
 تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿

لما ذكر تعالى مآل السعداء، تنى بذكر حال الأشقياء ومرجمهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال عز وجل: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسول الله ﴿ لَشَرَّ مَابٍ ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أى: يدخلونها فتعمرهم من جميع جوانبهم، ﴿ فَبئسَ المهاد . هذا قَلْبُ قَوْفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما العَسَاقُ فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطيع من شدة برده المألوم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشباه من هذا القبيل، الشئ وضده يعاقبون بها. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دكراً من عَسَاقٍ يهراق فى الدنيا، لامتق أهل الدنيا» ورواه الترمذى (١). وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة، والجميع كما يعذبون به، ويهانون بسببه.

(١) السنن (٢٨/٣) والترمذى (٢٥٨٤)، والحاكم فى المستدرک (٦٠٢/٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وقوله: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مِّمَّكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ : هذا إخبار عن قبل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتٌ آخِيهَا ﴾ [الاعراف : ٣٨] ، يعنى بدل السلام يتلادعون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى ، إذا أقبلت التى بعدها مع الحزنة من الزبانية : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أى : داخل معكم ، ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أى : لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أى : فيقول لهم الداخلون : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُنَا ﴾ أى : أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى : فبئس المنزل والمستقر والمصير . ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ، كما قال عز وجل : ﴿ قَالَتْ أَخْرَاهُمُ اللَّهُ مِنْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا لَأَنبِتُمْ عَلَانَا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف : ٣٨] ، أى : لكل منكم عذاب بحسبه .

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَخَذَتْهُمُ سِجْرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ ، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة ، وهم المؤمنون فى زعمهم ، قالوا : ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟ قال مجاهد : هذا قول أبى جهل ، يقول : ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلاتا وفلاتا . وهذا مثل ضرب ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم : يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَخَذَتْهُمُ سِجْرًا ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ يسلون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلهم معنا فى جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات ، وهو قوله : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بِهِمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الاعراف : ٤٤ - ٤٩] . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أى : إن هذا الذى لمخبرناك به يا محمد ، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لحق لا مرية فيه ولا شك .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي قَدَّمَ الْقَهَّارُ ﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله : إنما أنا منذر لست كما تزعمون ، ﴿ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى : هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى : هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ، ﴿ الْعَزِيزُ الْقَهَّارُ ﴾ أى : غفار مع عزته وعظمته . ﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴾ أى : خبر عظيم وشأن بليغ ، وهو إرسال الله إياى إليكم ، ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أى : غافلون . قال مجاهد ، وشريح القاضى ، والسدى فى قوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴾ يعنى : القرآن .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أى : لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملا الأعلى؟ يعنى : فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له ، ومحااجة ربه فى تفضيله عليه . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن معاذ ، قال : احتسب علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح ، حتى كدنا تراهى قرن الشمس . فخرج رسول الله ﷺ سريعا ، فَنَوَّبَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى ، وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ : « كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِكُمْ . ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ : « إِنِّي سَأَحْدِثُكُمْ مَا حَبَسَنِي

عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدِّر لى، فتمست فى صلاتى حتى استبقت، فإذا أنا برى عز وجل فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدزى فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا أدرى رب - أهدأها ثلاثا - فأرأته وضع كفه بين كفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات^(١)، والجلوس فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة يقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»، فهو حديث النام المشهور، ومن جعله بقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى وقال: «حسن صحيح»^(٣) وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور فى القرآن فإن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلِقُۙ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ﴿١﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوۡا لَهٗۙ سٰجِدِيْنَ ﴿٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ اَجْمَعُوْنَ ﴿٣﴾ اِلَّا اِبْلِيْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٤﴾ قَالَ يَاۤ اٰیٰتِیْسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدِیْۙ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِیْنَ ﴿٥﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْۢ بَرٖٔ خَلَقْتَنِیْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِنْ طِيْنٍ ﴿٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ﴿٧﴾ وَاِنَّ عَلَیْكَ لَعْنَتِیْۙ اِنَّ یَوْمَ الدِّیْنِ ﴿٨﴾ قَالَ رَبِّ اَنْظِرْنِیْۙ اِلَیَّ یَوْمَ یُعْثُوْنَ ﴿٩﴾ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ ﴿١٠﴾ اِلَیَّ یَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿١١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا اُغْوِيَنَّهُمْۙ اَجْمَعِيْنَ ﴿١٢﴾ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِيْنَ ﴿١٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ ﴿١٤﴾ لَآ اَمْلَآءَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ یَّبْعُكَ مِنْهُمْ اَجْمَعِيْنَ ﴿١٥﴾ ﴿

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، فى سورة «البقرة»، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، و«سبحان»، و«الكهف»، و«ها هنا». وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر: متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما واعظاما واحتراما، وامثالاً لأمر الله عز وجل. فامثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، فى رعمه. وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل لثته، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم

فى المطبوعة: «الجماعات» والثبت من المسند والمخطوطة.

المسند (٢٤٣/٥) والترمذى (٣٢٣٥).

الذى لا يُعْجَلُ عَلَىٰ مِنْ عِصَاهُ . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى ، وقال : ﴿لَعَنُوكُمْ لِأَعْوَابِهِمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال : ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُخْرَجَنَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَسْتَكْبِرَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء : ٦٥] .

وقوله : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى ، وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق ، والحق أقول . وفي رواية عنه : الحق منى ، وأقول الحق . وقرأ آخرون بتصبيها . قال السدي : هو قسم أقسم الله به . قلت : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ حَقُّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة : ١٣] ، وكقوله تعالى : ﴿قَالَ أَهْبِ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء : ٦٣] .

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (١) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاءُ بَعْدَ حِينٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصيح اجرا تعطونيهِ من عرض الحياة الدنيا ، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى : وما أزيد على ما أرسلنى الله به ، ولا أبتغى زيادة عليه ، بل ما أمرت به أدبته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة . عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود قال : يا أيها الناس ، من علم شيئا فليقل به ، ومن لا يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنيكم عليه السلام : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ . أخرجه (١) .

وقوله : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعنى : القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن ، قاله ابن عباس . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الانعام : ١٩] ، وكقوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [مرده : ١٧] . وقوله : ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ أى : خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أى : عن قريب . قال قتادة : بعد الموت . وقال عكرمة : يعنى يوم القيامة . ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة . وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ : قال الحسن : يا بن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين .